اصل الاطباء

للفيلسوف هربرت سبنسر

[اثبتنا في الجزء الثالث من اجزاء هذه السنة كلاماً تمهيدياً للفيلسوف هربرت سبنسر في اصل الصنائع بنوع عام ووعدنا ان نلخص ما كتبهُ حديثاً في اصل كل صناعة منها بنوع خاص وها نحن منجزون ما وعدنا بهِ . قال ما خلاصتهُ]

ابنت في مكان آخر انهُ يعسر التمييز بين الطبيب والكاهن عند القبائل المتوحشة . فترى الشخص الواحد يمارس الكهانة والتطبيب معاً . وامثلة ذلك كثيرة في اسيا وافريقية واميركا الشمالية والجنوبية حيث لم تزل شعوب كثيرة على الفطرة . فترى الطبيب في بلاد المغول يمارس الطب والكهانة معاً وعند بعض الهنود يمارس الطب وقت المرض ويقوم بالرسوم الدينية في الاعراس والمآتم . وتجد الرجل الواحد يعمل عمل الكاهن والمشعوذ والطبيب عند كثير من قبائل افريقية واميركا الشمالية والجنوبية

واصل هذا الاتحاد ان الكهنة والاطباء كانوا يحسبون ان صناعتيهم متعلقتان بارواح فوق الطبيعة وان بعض هذه الارواح شرير يؤذي الناس دائماً وبعضها غير شرير بالطبع ولكنهُ يغتاظ من الناس فينتقم منهم ان لم يستغفروهُ ويترضوهُ . فاذا دُعي طبيب لمعالجة مريض اهتمَّ اولاً بالارواح الشريرة لكي يطردها منهُ او يترضيها وقد يكون مقتنعاً بصحة دعواهُ وقد يكون دجالاً محالاً يخبئ عنكبوتاً او ضفدعاً في جيبهِ ثم يدعي انهُ اخرجها من بدن المريض وانها هي الروح الشريرة التي ابتلتهُ بالمرض

قال بعضهم عن اهل جزائر تهيتي الذين اطباؤهم كهنة وسحرة ان الاجرة التي يأخذونها جانب منها لهم وجانب للآلهة وهم يزعمون ان الآلهة تجلب الداء ولا تسمح بالشفاء الاَّ اذا استرضوها بالهدايا . وقال غيرهُ ان المغول قلما يفصلون بين الدواء والصلاة . والطبيب الكاهن ممتاز على الطبيب الذي ليس كاهناً لانهُ يستطيع ان يصف الدواء ويدعو للمريض في وقت واحد

ثم ان المتوحشين ينسبون فعل الدواء الطبيعي الى قوة روحية حالَّة فيهِ حتى ان كثيرين منهم يعبدون النباتات الطبية القوية الفعل زاعمين انها مساكن الارواح

ويُستدلُّ بدلائل اخرى ان الكهنة كانوا مستودع العلوم والمعارف وفي جملتها المعارف الدوائية المكتسبة بالاختبار الطويل فلما ارتقى العمران اخذت الصبغة الدينية تزول من هذه

المعارف رويدًا رويدًا فابتدأت صناعة الطب تفترق عن الكهانة . قال مسبرو عن المصريين القدماء " ان اصحاب صناعة الشفاء منهم انقسموا الى طوائف مختلفة طائفة تميل الى السحر وتعالج بالتعاويذ والطلاسم وطائفة تعظم شأن العقاقير وتدرس خواص النباتات والاتربة وتحدد الوقت الذي تستعمل فيه اما الاطباء المفلحون فلم يكونوا يقيدون انفسهم بهذا المذهب او ذاك بل كانوا يجمعون بينهما فيعالجون بالتعاويذ والعقاقير معًا وكانوا في الغالب من الكهنة "

وقال لنورمن عن الكلدانيين " ان فرق السحرة الثلاث التي وجد السر هنري رولنصن آثارها في خرائب بابل واشور تنطبق على الفرق الثلاث التي ذكرها كتاب دانيال اي السحرة (خرطومين) والاطباء (حكمين) والحكماء (اسافين) "

وقال الاستاذ سايس "الطب قديم في اشور و بابل وكان الجمهور يعتمدون على التعاويذ والرسوم الدينية لشفاء امراضهم و يعتقدون ان المرض من الابالسة لا من العلل الطبيعية ولكن عدد المتنورين كان يزداد دوامًا وهؤلاء كانوا يلتجئون الى الطب والاطباء لشفاء امراضهم لا إلى السحرة ولا إلى الكهنة" . ويظهر من القولين الاخيرين ان الاطباء فريق من الكهنة اقتصر على صناعة الطب

و يطلق على العبرانيين ما كان يطلق على غيرهم من الامم القديمة قال المسيو غوتيه " بقي الطب عند اليهود من اعمال الكهنة زمانًا طويلاً كما كان عند غيرهم من الامم القديمة ولم يكن احد يمارسهُ من غير اللاويين " . لكنهم لم يستمروا على ذلك بل افترق الاطباء عن الكهنة عندهم كما افترقوا عند غيرهم . قال كاتب حكمة ابن سيراخ " يا ابني اذا مرضت فلا تتوانَ بل صلِّ الى الله وهو يشفيك . ابعد عن الخطيَّة وقوِّم يديك وطهر قلبك من كل شر . قدم رائحة طيبة وتذكارًا من دقيق نقي ونقدمة سمينة . ثم استدعِ الطبيب لان الله خلقهُ ولا تبعدهُ عنك لانك تحتاج اليهِ "

وقد اشار درابر إلى ذلك في كتابهِ المشهور حيث قال " ان في التلمود ما يدل على كل درجات التشوه في صناعة الطب فاستعيض عن الامور الفائقة الطبيعة بامور طبيعية رويدًا رويدًا ومُزجت الرسوم الدينية بالحقائق العلمية فكان الكاهن يشفي المريض بوضع يديهِ عليهِ وعمل بعض الاعمال الدينية ولكن الحمى وُصفت وصفًا عمليًا ولو اخطأ الواصف في تعليلها ونُسِبَ فالج رجلي الحيوان إلى خرَّاج يضغط على نخاعهِ الشوكي وهي نسبة عملية صحيحة "

وجرى الطب في بلاد الهند هذا المجرى فكان هو وعلم الفلك من منشئات الديانة ثم لما انتشرت الديانة البوذية صار علم الطب يُدرَّس في مدارس الرهبان

وكان اليونان يعتقدون ان اصل علم الطب الهي وان اطباءهم الاولين من سلالة اسكلابيوس اله الطب ثم ضعف الاتصال بين الكهنة والاطباء رويدًا رويدًا إلى ان انفصل الاطباء عن الكهنة تمامًا ثم انقسموا اقسامًا فكان منهم المطببون والجراحون والصيادلة

ولم يكن عند الرومان اطباء في اول امرهم بل كانوا يعتقدون ان الامراض بلايا روحيَّة تحلُّ بهم ويقوم شفاؤها باسترضاء الارواح ٱلَّتي ابتلتهم بها . وكانوا يعتقدون ان كل فريق من الالهة او الارواح يحدث نوعًا مخصوصًا من الامراض . وكان عندهم جزيرة في نهر التيبر يزعمون ان فيها الهًا يسبب الاوبئة و يشفي منها فكانوا يقصدونها للاستشفاء . اي كان الطب عندهم في اوله متعلقًا بالكهنة كما كان عند غيرهم من الشعوب . ثم جعلوا يعتمدون على الاطباء الاجانب من بين الشعوب ٱلَّتي خضعت لهم وكان غالبهم من العبيد او المعتوقين. وسنة ٥٣٥ سكن رومية اول طبيب يوناني واشتهر باعماله الجراحيَّة حتى ان الدولة اعطتهُ بيتًا لسكناهُ ومنحتهُ رعويَّة مدينة رومية فتقاطر اخوانهُ الاطباء اليها وبقيت هذه الصناعة في ايدي الاجانب وكانت اوفر الصنائع ربحًا

ثم جاءت الديانة المسيحيَّة وكانت مناقضة للعبادة الوثنيَّة فوجب ان تفصل بين التطبيب والكهانة ولكن عواطف الناس ومعتقداتهم ارسخ في نفوسهم من السنن ٱلَّتي تُسنُّ لهم فاذا ابدلوا ديانة باخرى فمعتقداتهم القديمة تنتقل معهم من الديانة الاولى إلى الثانية ولذلك بقي الوثنيون الذين تنصروا يعتقدون ان اصل الامراض فوق الطبيعة واناطوا علاجها بقسوسهم وانحصرت صناعة الطب بالرهبان وكانوا يعالجون بالصلوات وآثار الشهداء والماء المقدَّس . و بقي القسوس يستعملون التطبيب حتى صار ذلك يشغلهم عن القيام بواجباتهم الدينيَّة واضطرَّ المجمع اللاتراني الذي عقد سنة ١١٢٣ ان ينهاهم عنهُ لكنهم لم ينتهوا كما يظهر من انهم نُهوا عنهُ ايضًا في مجمعين تاليين . والاعتقاد بان بعض الامراض ولا سيما العقلي منها مسبب عن قوة روحانيَّة او شيطانيَّة لم يزل شائعًا في كثير من البلدان المسيحيَّة حتى يومنا هٰذا

وحدث في صناعة الطب ماحدث في كل الاشياء ٱلَّتي ارتقت ارتقاء اي انها تفرعت إلى فروع من حين انفصلت عن غيرها جريًا على ناموس تقسيم الاعمال . والفروع الاولى المشهورة هي علاج الامراض وجراحة الاعضاء وتركيب الادوية . وقد يجمع الطبيب بين هذه الفروع الثلاثة وقد يقتصر على فرع واحد منها ولو درس الفرعين الآخرين علمًا وعملاً بل قد يقتصر على فرع صغير من واحد منها

وهٰذا التقسيم قديم فقد كان عند البراهمة الذين انفوا مما في الطب من الاعمال اليديَّة

فخصوا بها فريقاً من الناس ادعوا انهم متولدون من برهمي وامرأة من بنات فاشيا . وكان ايضاً عند المصريين والعرب . ولم يكن عند اليونان بل كان الطبيب من اطبائهم طبيباً وجراحاً وصيدلانياً معاً . اما المصريون فقال فيهم هيرودوتس ان عندهم لكل نوع من الامراض طبيباً خاصاً ولذلك امتلأت بلادهم من الاطباء بعضهم لامراض العين و بعضهم لامراض الرأس و بعضهم لادواء الاسنان و بعضهم لامراض الامعاء . والظاهر ان اليونان اقتدوا بهم بعد حين فقسموا الطب الى فنون مختلفة كانوا يتعلمونها على حدة

والآن قد زاد تقسيم الطب الى فروع كثيرة ولكن الغالب ان الطالب يتعلمها كلها وهو اما ان يمارسها معاً واما ان يقتصر على فرع منها فيتقن درسهُ واستعمالهُ حتى يشتهر بهِ

ولا بدَّ في ارتقاء كل شيءٍ من ان تتولد فيهِ اسباب التأليف كما تتولد اسباب التفريق فتفعل هذهِ من جهة وتلك من اخرى . فكما افترق الطب عن الكهانة واقترقت فروعهُ بعضها عن بعض تألف جماعة الاطباء وتعاونوا على درس هذا العلم وتوسيع نطاقهِ . فقد قيل ان هيكل سيرابيس بالاسكندريَّة كان مستشفًى للمرضى وكان طلبة الطب يجتمعون فيهِ يدرسون الامراض وطرق علاجها كما يفعلون اليوم في المدارس والمستشفيات . وكذلك في رومية كان طلبة الطب يتلقونهُ في هياكل اسكلابيوس . ثم صار علم الطب يدرَّس في الاديرة وانشئت اول مدرسة لهُ في ايطاليا سنة ١١٤٠ وفي فرنسا قبل نهاية القرن الثالث عشر . ثم اخذت المدارس الطبيَّة تنشأ في سائر الاقطار . وانشئت الجمعيَّات الطبيَّة والجرائد الطبيَّة وكلها من وسائل التأليف بين الاطباء . انتهى

وخلاصة ما تقدم ان الناس رأوا ما يحلُّ بهم من الامراض والادواء ولم يروا اسبابها فنسبوها الى قوَّات روحيَّة لا ترى وجعل كهنتهم يعالجونها بالوسائل الروحيَّة لطرد الارواح الشريرة التي اوجدتها او لاسترضائها . ثم انف الكهنة من الاعمال الجراحيَّة وبعض الاعمال الطبيَّة فاناطوا بها اناساً غيرهم فشاركوهم في صناعة الطب . ثم زادت معارف الناس فرأوا للامراض والادواء اسباباً طبيعيَّة واكتشفوا لها طرقاً علاجيَّة فقلَّ تسلط الكهنة عليها وزاد تعلُّق الاطباء بها الى ان انفصل الاطباء عن الكهنة وصارت صناعة الطب خاصة بهم وتفرَّعت الى فروعها المختلفة . ثم صارت علوماً تدَّرس في المدارس ونشأ فيها من الجمعيَّات والجرائد ما يؤلف بين الاطباء وفروع الطب